هل فعلا يتقدم درجة ...

الدكتور عبد الغني عماد
استاذ العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية

هناك تيار متنام يقول ان الاسلام ساوى بين الرجل والمرأة وبأنه كان بمثابة اضخم ثورة اجتماعية تركت آثارها على اوضاع المرأة العربية ، فاعترف بكامل آدميتها وسلحها بالاستقلال الاقتصادي بأوسع معانيه ، وحررها من ولاية الرجل عليها فيما يتصل بجوهر الحقوق الاساسية للانسان ، بل اشركها ايضا في تدبير شوؤن الدين والسياسة على ما ترى امينة السعيد . لكنه مع هذا قدّمه عليها " درجة " كما كان يقول شيخ الاصلاح والنهضة محمد عبده ، وقد عرف " الدرجة " بأنها تعني القيادة والرياسة التي تقتضيها ضرورات توزيع العمل ، فالرجل أحق بالرياسة لانه أعلم بالمصلحة ، مع ذلك كان هذا الرأي حينها يعتبر بحق جريئا بل ثوريا لانه يصدر عن مفتي ورجل دين وعالم من كبار العلماء في عصره ، ذلك ان " الدرجة "هذه ما كان يقتصر تعريفها في الحدود التي حددها الشيخ رحمه الله .

هذا النوع من المنطق التسويغي ساد في صفوف الاسلاميين ، ولا يزال حتى اليوم, مع تجديدات طفيفة ،وتحسينات شكلية . كان الشيخ محمد الغزالي ،رحمه الله ، يقول ما ألفنا سماعه ، أنّ الاسلام سوّى بين المرأة والرجل في جملة الحقوق والواجبات،واذا كان هناك فروق محدودة , فاحتراما لأصل الفطرة الانسانية ، وماينبني عليها من وظائف. وان كان هناك من مبالغات فهي تقاليد وضعها الناس ولم يضعها رب الناس ، أدّت الى بقاء معاملتها كما كانت في ظلمات الجاهلية الأولى ...الى أن هبط مستوى التربية ،ومال ميزان الامة مع التجهيل المتعمد للمراة ، والانتقاص الشديد لحقوقها .

في بدايات انتسابنا الى الجامعة ، كنا ثلة من الشباب، لانأخذ على محمل الجّد ما يطرحه البعض من افكار جديدة في مجال حقوق المراة ، كنا نكتفي بذلك المنطق التسويغي للتيار الاسلامي الوسطي والمحافظ .ونجد في ما كتبه ويكتبه رواد هذا التيار بدءا من قاسم امين ورفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي , وصولا الى محمد الغزالي ومصطفى السباعي ،ما يكفي من التنوير والتجديد في ما ورثناه من مفاهيم حول المراة .

في الجامعة بدأ الاحتكاك الفكري والتفاعل الثقافي مع تيارات أخرى اكثر جذرية في تناول هذه المسالة ،كانت بالنسبة الينا محاضرات الشيخ صبحي الصالح في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية , مدخلا لتطوير تفكيرنا في هذا المجال. ولا ازال اذكر محاضرته في كلية بيروت الجامعية حينها ، والتي بدأها بقول للكاتبة الفرنسية سيمون دو بوفوار : " ان المراة لاتولد انثى , ولكن طبيعة الحياة الانسانية تدمغها بطابع الأنثى " , معتبرا هذا القول تعبيرا صادقا عن الفكر الاسلامي الأصيل قبل تشويه وجهه الجميل . قد ّم الشيخ الدكتور يومها تعليلا مفاجئا لنا ،اعتمد فيه الدليل العقلي أكثر من الدليل النقلي . قال يومها ان المرأة في نظر الاسلام انسان كامل قبل ان تكون انثى ، وأن على المرأة أن تقتنع اقتناعا تاما بالمساواة بين الرجل وبينها . فالكتاب والسنة صريحان في هذا الصدد: فكلا الجنسين من طينة واحدة ، ومن اصل واحد، كما عبر القرآن عن ذلك " من نفس واحدة " في مطلع سورة النساء.وكما عبر عن ذلك النبي (صلعم): انما النساء شقائق الرجال . وكأنه بشرحه للآية على هذا النحو يرى لالتقاء الجنسين الشقيقين صورة مترابطة متناغمة ، يتكون منها كائن بشري كامل متآلف الاجزاء .

تساءلت وأنا استمع اليه مشككا ،ماذا يقول الشيخ في قصة " الدرجة "؟ وكنت طبعا اقصد تلك الآية الشهيرة في سورة البقرة : "ولهّن مثل الذي عليهّن بالمعروف , وللرجال عليهّن درجة " ما كدت أنتهي من هذا التساؤل بيني وبين نفسي ، حتى فوجئت بالشيخ الدكتور يتناول موضوع الدرجة مفصلا فيها قولا كان بالنسبة الينا حينها قولا جديدا وجريئا ، خاصة وانه لابد في هذه الاية من التوفيق بين آخرها وأولها. اذ كيف تكون للرجال درجة عليهن , مع أن لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات؟

جواب الشيخ كان ان المراد بالدرجة هنا القوامة في الجانب المادي أو الاقتصادي البحت . فهي درجة اضافية مقابل تكليف ينتهي في حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف في محيط الجنس ومحيط الحياة . ان التفاوت في التبعات هو الذي اقتضى تفاوتا في الميراث وفي القوامة بشكل عام. وان للمراة حقا يقابل حق القوامة ، هو الأمومة . فهي التي تهب نفسها لحب كبير أو عمل عظيم ، وتتفانى بذلك الى حد المغالاة ، ترتفع الى قمة لايصل اليها الرجال ، ليس الرجل اكثر استعدادا من المراة للمشاركة في الحياة العامة و وقوة العمل الا بقدر ما يهيئه النظام لذلك .

كانت لهذه المواقف أهمية كبرى ، ذلك انها ليست صادرة عن شخصية أكاديمية فقط، أو عن رجل دين فقط، بل عن شخصية تجمع بين الثقافة الغربية الواسعة والعلم الديني الشرعي العميق الرؤية ، والاجتهاد الفقهي الجريء والشجاع . كانت محاضرات الشيخ الصالح تستقطب جيلا كاملا من الطلاب الجامعيين الذين يتنافسون على حضورها ، وكانت سببا لنقاشات فيما بيننا ساهمت في تفتيح الاذهان وتنوير العقول .

ومنذ ذلك الحين عرفنا خطأ الذهنية الدينية الموروثة عند تقويم وضع المرأة ، وضرورة عدم التفريق بين الآيات التي وردت بحقها في القرآن، ذلك أن الظن بأن ماحصل اثناء حياة الرسول في حق المراة هو منتهى الامر وأن الأمر انتهى بوفاته، خطا فادح . ذلك ان تحرير المرأة في الاسلام بدأ في عهد النبي ، لكنه لم ينته بعد..

تلك هي قصة " الدرجة "التي حصرت بالتكليف من جهة، والقدرة على الانفاق والتبعات الناتجة عن ذلك من جهة اخرى . وعليه فكم من رجال اليوم يقدرون على القيام باعباء هذه الدرجة؟